مدرسة فرانكفورت

تمهيد:

تعد "مدرسة فرانكفورت" من أبرز المدارس النقدية والفلسفية في القرن العشرين. وهي نظرية نقدية تبنت أفكار "ما بعد الحداثة" في تقويض السرديات الكبرى، والأفكار الشمولية، كالماركسية التي تحولت إلى نص مقدس يدعي امتلاك الحقيقة. وكان هدف هذه المدرسة هو تحرير الإنسان من الأيديولوجيا والمؤسسات التي بررت التسلط الذي تمارسه أنظمة فكرية معينة.

- أولا: نشأة المدرسة:

يعود تاريخ النظرية النقدية إلى بداية ثلاثينيات القرن العشرين (1922)، ويرتبط تأسيسها بمدرسة فرانكفورت و بأعمال المفكرين الألمان أمثال: ماكس هوركهايمر، تيودور أدورنو، وهيربرت ماركوزي، وفي الوقت الراهن هابرماس. وهي نظرية اجتماعية قامت في معهد فرانكفورت للبحث الاجتماعي، وكانت ذات توجه ماركسي.

- ثانيا: تعريف المدرسة:

هي مدرسة فكرية وفلسفية "اتخذت النقد منهجا، وحاولت القيام بممارسة نقدية جذرية للحضارة الغربية قصد إعادة النظر في أسسها ونتائجها في ضوء التحولات الأساسية الكبرى التي أفرزتها الحداثة الغربي، وخاصة منذ الأنوار، التي تعتبر نقطة تحول جوهرية في مسار هذه الحداثة. كما أنها لعبت دورا هاما في رصد مختلف الأعراض الباثولوجية (المرضية) التي عرفها المجتمعات الغربية المعاصرة كالتشيؤ والاغتراب وضياع مكانة الفرد وأزمة المعنى وغيرها".

- ثالثا: منطلقاتها الفكرية:

1- التشيؤ والاغتراب: يقصد بالاغتراب أن البشر في المجتمع الصناعي الحديث مغتربون عن ماهيتهم وإمكاناتهم. ذلك أن الإنسان قد تحول في ظل علاقات العمل الصناعية إلى مجرد عنصر أو جزء ضئيل من جهاز الإنتاج، فالإنسان واقع تحت ضغط الآلات التي تفرض عليه ألوانا من السلوك النمطي الرتيب وتسد عليه منافذ المبادرة الشخصية الحرة، وتعوق تحديده لذاته وتخنق فاعليته الخلاقة.

2- نقد العقل التنويري: ظهر "جدل التنوير" في سياق تاريخي متميز عرفته المجتمعات الغربية بعد صعود النظم السياسية الشمولية كالنازية والفاشية والستالينية وجو الحروب التي شهدتها أوروبا في هذه اللحظة التاريخية... حيث تبين أن المشروع التنويري أصبح أبعد من تحقيق المبادئ والقيم الإنسانية التي قام عليها، والتي دافع عنها الفلاسفة التنويريون.

3- القمع والتسلط في المجتمعات الصناعية المتقدمة: يرجع الفضل في الترويج لهذه المقولة إلى هوبرت ماركوز الذي حاول أن يجد لها مبررا معقولا في بحوث التحليل النفسي عند "فرويد". فقد جاء في كتاب "الضيق بالحضارة" لفرويد "أن التطور الاجتماعي والحضاري الذي حققته البشرية لم يتم إلا بالقمع المستمر للدوافع والحاجات الإنسانية الأولية". ومن هنا يكون احترام القواعد والنظم الاجتماعية على الدوام نوعا من القمع الواعي أو غير الواعي للدوافع والرغبات والحاجات الأولية... حيث تحولت مجتمعات الرخاء الصناعية الحديثة إلى نظام شامل للقمع والهيمنة والسيطرة.

4- الطابع الثوري: يوجه أصحاب النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ثورتهم وانتقادهم نحو المجتمع الصناعي الحديث، حيث طالبوا بتغيير المجتمع تغييرا ثوريا يمتد إلى بنية التفكير والمواقف والحاجات واللغة التي يستعملها الناس في المجتمع.

5- صناعة الثقافة: ركز "أدورنو" و "ماركيوز" اهتمامهم على مشاكل البنية الفوقية، وأكدوا أن وسائل الإعلام الجماهيرية قد حالت دون أن يتخذ التاريخ مجراه الحتمي. فوسائل الإعلام قد أفسدت عقول الجماهير. أي أن الجماهير تم استدراجهم للإنغماس في المتع السطحية والمبتذلة التي تقدمها الثقافة الشعبية. كما تم غسل عقولهم بوسائل الإعلام الجماهيرية، ومن ثم فقدوا الاهتمام بهوية طبقتهم، وبالحاجة إلى الثورة والتغييرات السياسية والاقتصادية للبنية العامة في مجتمعاتهم.

- رابعا: تقييم أفكار مدرسة فرانكفورت:

الجانب الإيجابي:

تمثل الجانب الإيجابي للمدرسة في انتقادها للرأسمالية، والنظريات العلمية التي أهملت الإنسان والذات والمجتمع والمصلحة الاجتماعية والقيم الأخلاقية.

الجانب السلبي:

يتمثل الجانب السلبي في تشعب آراء فلاسفة المدرسة واختلافها من مفكر لآخر، حيث يؤخذ عليها أنها لم تفرز نظرية اجتماعية متكاملة ومتسقة مع طرحها، حيث تسعى إلى كشف طرق الهيمنة الاجتماعية وليس إيجاد بديل لها.

وختاما يمكن القول أن النقد الموجه لمدرسه فرانكفورت لا ينقص من قيمتها لأنها تجربة فلسفية اجتماعية ساهمت في تفكيك بنى الهيمنة في المجتمعات الغربية. وكشفت مزاعم الفكر التنويري التحرري الذي أدخل البشرية في سلسلة حروب خلفت دمارا شاملا على الشعوب.

مراجع المحاضرة:

- كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط 1، 2010.
- دليل الناقد الأدبي.
- آرثر إيزابجر: النقد الثقافي.